

سكينة النفس عطاء الله لأهل الإيمان

إن سكينة النفس تنتج عن الإيمان الصادق، يلجأ إليها المكروب فيطمئن، ويأوي إليها المهموم فيهنأ، ويركب إليها المغموم فيفرح وبهدوء النفس وصلاح البال وحسن العمل يكون ممن خصهم الله بقوله: {سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ} [محمد: ٥ - ٦]، وإذا كان الإنسان يراوده طموحه إلى تحقيق مجموعة من الرغائب الدنيوية (كالصحة. والمال والموهبة. والقوة والشهرة) ويرى أن هذه الأمور تحقق السعادة إلا أنها لو اجتمعت بعيدة عن سكينة النفس فإنها تتحول إلى عوامل نكد واضطراب فبدون سكينة النفس يتحول القصر سجنًا بينما يتحول البيت الصغير قصرًا رحبًا وواقع حياة الناس يشهد وشاهد صدق على أن الإيمان هو المصدر الوحيد لاكتساب هذه المنحة الربانية وفي ذلك يقول ربنا: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾} [الشمس: ٧ - ٩]، ويأتي حديث النبي صلى الله عليه وسلم كما جاء في الجامع الصغير للسيوطي وفيض القدير للحاكم من حديث أبي هريرة ☺ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "السكينة مغنم وتركها مغرم."

معنى السكينة: مأخوذة من السكون أي الهدوء والاطمئنان والأمن والاستقرار فهي تعنى الراحة والاستئناس كما يقول ربنا: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ أَيْلًا لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾} [يونس: ٦٧].

كما يقول ربنا: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَنْزُلًا لِيَتَسْكَنُوا

إِلَيْهَا} [الروم: ٢١].

يقول الجرجاني في التعريفات: هي نور يسكن إلى شاهده ويطمئن.

يقول الراغب الأصفهاني في المفردات في غريب القرآن في قول الله جل جلاله: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ} [الفتح: ٤]: السكينة قيل هو ملك يسكن قلب المؤمن ويؤمنه وقد قال علي بن أبي طالب إن السكينة لتنتطق على لسان عمر وقيل هو العقل وقيل له: سكينة إذا سكن عن الميل إلى الشهوات وعلى ذلك قوله: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: ٢٨].

السكينة في القرآن: وردت السكينة في القرآن في ستة مواضع في ثلاثة منها بلفظ (سكينة) مضافة إلى الضمير الذي يعود على الله جل وعلا وفي كل منها تمثل نافذة الأمن التي يسديها الله لعباده المؤمنين حين تلم لهم المخاوف التي لا يثبت أمامها إلا من كان الله معه بسكينة فيسكن الخائف ويطمئن القلق ويستريح المتعب.

1- حال النبي والصديق وهما في الغار: ووصول المشركين إلى الغار وتظهر مشاعر الحزن على وجه الصديق خوفاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم : فينزل القرآن: {إِلَّا نَضْرُوهُ فَقَدْ نَضَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَرَى اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيْدِيَهُمْ يَجُودُ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ٤٠].

2- في غزوة حنين: حين انكشف المسلمون عن الرسول صلى الله

عليه وسلم وصار في مواجهة الأعداء الذين استطاعوا أن يفزعوا المسلمين فكانت السكينة من أهم أسباب الثبات في الموقف العصيب.

يقول تعالى: {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾} [التوبة: ٢٥ - ٢٦].

3- حين أبدى المشركون عصبيتهم البغيضة في ردهم للمسلمين ومنعهم النبي صلى الله عليه وسلم عن دخول الحرم فاعتصرت أكباد المسلمين غيظاً فكانت السكينة ينبوع الهدوء الذي طمأنهم يقول تعالى: {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾} [الفتح: ٢٦].

وكان السكينة صارت شيئاً معروفاً ومعهوداً يجده المؤمنون كلما ألم بهم حال ضيق وموقف عصيب.

السكينة في السنة:

ما رواه مسلم من حديث البراء قال: (كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوط بشطنتين (حبلين) فتغشته سحابة فجعلت تدور وتدنو وجعل فرسه ينفّر منها فلما أتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال صلى الله عليه وسلم: "تلك السكينة تنزلت للقرآن".

روى البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري ☺ أن أسيد

بن حضير بينما هو ليلة يقرأ في مربده (1) (مكان يجفف فيه التمر) فجعلت فرسه ودارت حتى كادت تقطع رباطها فسكنت فسكنت الفرس فاستأنف فدارت دورة أشد من السابقة فكرر ذلك وهنا حانت منه النفاتة إلى السماء فرأى غمامة كالمظلة لم تر العين أروع منها ولا أبهى وقد علق بها أمثال المصابيح فملأت الأفاق ضياء وضاء وهى تصعد إلى أعلى حتى غابت عن ناظريه فلما أصبح مضى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقص عليه خبر ما رأى فقال صلى الله عليه وسلم: "تلك الملائكة كانت تستمع لك ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستر منهم- فأخبر مرة عن هذا بنزول السكينة ومرة بنزول الملائكة.

يقول القرطبي: وفي هذا حجة لمن قال: إن السكينة روح أو شئ له لأنه لا يصح استماع القرآن إلا من يعقل وبذلك يتضح أن السكينة مغنم يتحقق للمؤمن حين يصدق الإيمان بربه وهى مغرم حتى لا يسعى المؤمن إلى اكتسابها وتحقيقها فيحرم منها.

إن صدق الإيمان يجعل المؤمن في حال سكينة وهدوء ويستحضر قول الله وجل وعلا: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا

فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾

[الحديد: ٢٢ - ٢٣]، ومن غنم السكينة يقين المؤمن بأنه في معية الله ومن كان الله معه فهو الآمن في كل مواطن الخوف فها هو نبي الله موسى

(1) وهو بمعنى المكان الذي تبيت فيه الدواب أيضاً.

يستحضر معية الله فيجد السكينة حين هلع بنو إسرائيل لما وجدوا جيش فرعون يلحق بهم... فما كان من موسى إلا أن قال: {كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} [الشعراء: ٦٢]. وما شعر به النبي صلى الله عليه وسلم حينما فزع الصديق في الغار فقال: {لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [التوبة: ٤٠].

* * *